

القبيلة الخلدونية في ظل المتغيرات المعاصرة.

د.مناد طالب

جامعة الجزائر

لعل أهم ما يلفت نظر الباحث عند ابن خلدون هو دراسته الميدانية، ونقله لواقع اجتماعي أو عمراني مغربي أو عربي إسلامي كان قد عايش أحداثه¹ عن قرب: إما بالتبعية والاطلاع وإما بالممارسة، وهذا الذي جعله يستحق وعن جدارة ودون طراوة لقب مؤسس علم العمران أو ما يطلق عليه اليوم علم الاجتماع.

هذا العلم إذن قام عند ابن خلدون على أساس استقرار الواقع أو معاشة الأحداث و معاينتها وانتهى إلى جملة من العوامل الاجتماعية التي تؤسس لبناء المجتمعات البشرية والدول وتحريك تاريخها نحو القوة والدوام أو الضعف والزوال، من أبرز هذه العوامل عامل القبيلة والعصبية القبلية.

I / ما القبيلة وما العصبية القبلية؟

أ/ ما القبيلة؟

القبيلة هي عبارة عن جمع من الناس وهي من بني أب واحد أي ينحدر منه الأبناء والأحفاد. ولذا يقال لكل جماعة من واحد "قبيلة". وهي تعدّ من النواة الأولى للعمران عند ابن خلدون ذلك أن أسباب دواعي الاجتماع عند ابن خلدون تعود إلى عوامل طبيعية وضرورية منها السعي في المعاش والاحتمال في تحصيله من وجوهه واكتساب أسبابه لما جعل الله في الإنسان من الافتقار إلى الغذاء في حياته وبقائه، ثم السعي إلى العمران للأنس بالعشير واقتضاء الحاجات لما في طبائعهم من التعاون على المعاش. والإنسان بحكم ما اختص به دون سائر

الحيوانات من فكر احتاج فيما بعد إلى العلوم والصنائع وإلى الحُكْمِ الوازع والسلطان القاهر، وتبعاً لهذا فمن العمران ما يكون بدوياً يقتصر فيه الإنسان على الضروري من العيش الذي يضمن له الحياة والبقاء، ومنه ما يكون حضرياً يرتقي فيه الإنسان إلى

القبيلة الخلدونية في ظل المتغيرات المعاصرة.

الصنائع والعلوم والفنون فالترف وهذا التدرج في العمران هو الذي جعل ابن خلدون يقرر أن البدو سابق على الحضرة ومؤسس له.²

والقبائل عند ابن خلدون تنقسم وتنوع بانقسام وتنوع مصادر عيشها:

1. قبائل المدر والقرى والجبال: معاشها يرتكز أساسا على الزراعة والقيام بالفَلْح. ولما كان هذا النوع من العمل يقتضي الاستقرار والتواجد المستمر إلى جانب الأراضي المزروعة كان المقام بها أولى من الظَّن أي التنقل ويمثل هؤلاء القبائل عامة البربر والأعاجم.

2. قبائل المناطق الداخلية (الشاوية): وهي قبائل معاشها يقوم أساسا على السائمة مثل الغنم والبقر. ولما كانت السائمة تقتضي ارتياد المسارح والمياه كانوا في الغالب قبائل ظعن أي متنقلين بين المسارح الطيبة، ولهذا تجدهم لا يبتعدون في القفر حيث تفتقد مثل هذه المسارح. ويسمّون شاوية ومعناه القائمون على الشاء والبقر، ويمثل هؤلاء جمع من البربر والترك وإخوانهم من التركمان والصقالبة.

3. قبائل القفر: معاشهم يقوم على تربية الإبل. ولأن التلول أو التلال لا تناسب الإبل التي تفضل مراعي الشجر بالقُفُر وورود مياهه المِلحة والتأقلم مع شتائه ذي الهواء الدافئ، فكان هؤلاء القبائل أكثر ظعننا وأبعد في القفر من قبائل الشاوية.. وكانوا بذلك أشد الناس توحشا. ويمثل هؤلاء العرب وفي معناهم ظعون البربر وزناتة بالمغرب والأكراد والتركمان والترك بالمشرق الذين هم أقل بدواة من العرب لقيامهم بالإبل والشياء والبقر معاً، أما العرب فهم قائمون على الإبل فقط.³

من هنا فالقبيلة أول ما تكون مجتمعا قرويا مكتفيا بذاته مقتصرًا على الضروري من الأقوات والملابس المساكن وسائر الأحوال والعوائد، وقائما على أساس علاقات القرابة والدم التي تقوى وتضعف على قدر قوة وضعف المخاطر التي تواجه أفراد القبيلة، ومعزولا عن غيره من المجتمعات القروية المماثلة له. والمجتمع القبلي عادة ما يحكمه العرف والتقاليد ما لم يهذب الشرع، وعند التنازع يرجع الأفراد فيه إلى شيخ القبيلة ومجلس العشيرة، وكثيرا ما يكون العمل بين أفراد القبيلة عملا جماعيا. وهذه من أهم العوامل المؤسسة لمجتمع القبيلة والمولدة فيه لما يسمى بالعصبية القبلية.

د. مناد طالب

وهكذا يمكن أن نخلص إلى القول أن تنوع هذه القبائل يعود بنسبة ما إلى تنوع موارد أو مصادر عيشها وظروف تواجدها في الزمان والمكان ومن ثمة فتغيرها الاجتماعي يخضع هو الآخر بنسبة ما إلى تغير موارد أو مصادر عيشها وظروف تواجدها في الزمان والمكان.

ب/ ما العصبية القبلية؟

العصبية لغة مأخوذة من (العَصَبُ) وهو الطيّ والشّدّ. وَعَصَبَ الشيء يَعْصِبُهُ عَصَبًا: طواه ولواه، وقيل: شدّه. والتَّعَصَّب: المحاماة والمدافعة ومنه قولهم: عَصَبَ القوم بفلان إذا أحاطوا به. والعَصَبَة: الأقارب من جهة الأب، وفي الشريعة كل من يأخذ من التُّركَة ما أبقتة أصحاب الفرائض أي جنسها واحدا كان أو أكثر. قال الأزهري: عصبه الرجل: أولياؤه الذكور من ورثته، سمّوا عصبه لأنهم عُصَبوا بنسبه، وكل شيء استدار بشيء فقد عُصِبَ به. والعُصْبَة والعِصَابَة: الجماعة. ومنه (ونَحْنُ عُصْبَة) سورة يوسف الآية 14 ومنه الحديث الشريف (إِنْ تَهَلَّكَ هَذِهِ الْعِصَابَة) . وعَصِيب: شديد ومنه قوله تعالى (هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ) سورة هود الآية 77.⁴

وجاء معناها في الاصطلاح، في لسان العرب: هي (العصبية) أن يدعو الرجل إلى نصرة عصبته والتأهب معهم على من يناوئهم ظالمين كانوا أو مظلومين.⁵ ويذهب ابن خلدون إلى أن العصبية إنما تكون من الالتحام بالنسب أو ما في معناه: "وذلك أن صلة الرّحم طبعي في البشر إلا في الأقل. ومن صلّتها [العصبية التي تعني] النعرة على ذوي القربى وأهل الأرحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة... ومن هذا الباب الولاء والحلف إذ نعمة كل أحد على أهل ولائه وحلفه...[أو] أن ثمرة الأنساب وفائدتها إنما هي العصبية للنعرة والتناصر."⁶ واعتمادا على هذا الضبط الخلدوني، ومع إدخال بعض المصطلحات الحديثة، يذهب الجابري إلى أن العصبية: "رابطة اجتماعية سيكولوجية، شعورية ولا شعورية معا، تربط أفراد جماعة ما، قائمة على القرابة، ربطا مستمرا يبرز ويشد عندما يكون هناك خطر يهدد أولئك الأفراد كأفراد أو كجماعة."⁷

القبيلة الخلدونية في ظل المتغيرات المعاصرة.

وبهذا نقول إن العصبية القبلية من أهدافها القربية الاجتماع والتناصر ودفع المخاطر فيما بين القوم ظالمين كانوا أو مظلومين، ويكون أولا بالنسب وثانيا بالولاء والتحالف بين العصبيات، ولا تكون الرياسة إلا فيمن كانت عصبيته أقوى وأوحش.

وقد تتشعب العصبية وتنوع وتأخذ أشكالا أخرى وتتحدد بتحدد مجالاتها كالتعصب للجنس أو اللون أو المذهب أو الحزب...الخ. وشدتها تضعف وتقوى بقدر ضعف وقوة الرابط الذي يربط الشخص بالشئ المتعصب له وإيمان الشخص نفسه بهذا الرابط ومدى إخلاصه له.

خصائص القبيلة:

وتبعاً لما سبق يمكن القول أن للقبيلة جملة من الخصائص كان قد أشار إليها ابن خلدون منها:

. القبيلة تعد النواة الأولى للمجتمع المنظم وأول الطريق نحو التمدن.

. القبيلة تمتاز بالمقاومة والشدة، والصبر والتجلد لاقتصارها على الضروري من الأقوات والملابس والمساكن..

. من خصائص القبيلة المناعة الدفاعية الذاتية القائمة على التعصب للأقارب بالفطرة ذلك أنها تملك عصبية تتطلع إلى الاجتماع والتناصر أي هي منشأ الاجتماع وسر الوازع عن الفرقة والتخاذل، ولذلك تعتمد القبيلة في دفع عدوانها على عصبيتها، وأنه لا ذود ولا قتال من دون عصبية قبلية.

. القبيلة تتطلع إلى التغلب والملك والرئاسة، والتغلب والملك والرئاسة لا يحصل إلا للعصبية التي تملك أقوى العصبيات وأكثرها توحشاً، ولم يخبرنا التاريخ كما يذكر ابن خلدون إلا بذلك.

. القبيلة تتطلع إلى القوة ومنه إلى الولاء والتحالف حتى تزداد قوة على قوتها.

. القبيلة لا تسلم لواءها إلا لمن هي أقوى منها عصبية وتدخل تحت لوائها وتقوى بقوتها وتحقق مأربها، لذا كان طبيعياً وضرورياً لواء العصبيات تحت لواء نصاب واحد ذي العصبية القوية.

. القبيلة تتطلع إلى الدولة ببلوغ قوتها مداها.

د.مناد طالب

. القبيلة القويّة بعصبيتها ضمان لبقاء الدولة ومنعة للخليفة أو الحاكم.

. الدعوة الدينية تزيد القوة العصبية قوة إلى قوّتها وتقوّمها.

هذه الخصائص الدارس لها تجعله، من دون شك، يتوقّع مسارات القبائل العربية عموماً وقبائل المغرب العربي خصوصاً، ومن ثمة يصير في إمكانه ترويضها وتوجيهها الوجهة السليمة ويكون ذلك بالقدر الذي يستوعب به هذه الخصائص ويستحكم نواصبها، وبذلك تكون مصدر قوّة وبناء ووحدة لا مصدر ضعف وهدم وفُرقة.

II / من الولاء للقبيلة إلى الولاء للوطن والأمة:

أ/ القبيلة وعامل التناصر:

لقد تبينّ لنا سابقاً كيف أن نواة القبيلة هو النسب ذلك أن القبيلة تنحدر دوماً من أب أو جد واحد، وهكذا كان التناصر والنصرة بين أفرادها غريزياً فطرياً أو طبيعياً قبل أن يكون عقلياً أو مصلحياً. وهذه حقيقة تتكشف لنا بالاستقراء التاريخي، وهي بذلك منشأ اجتماعي أولي طبيعي، يقوى ويضعف حسب قرب أو بعد النسب من جهة وعلى حسب قوة وضعف المخاطر التي تواجه هذا المنشأ الاجتماعي من جهة أخرى؛ وهنا قول ابن خلدون: "النسب إنما فائدته هذا الالتحام الذي يوجب صلة الأرحام حتى تقع المناصرة والنصرة وما فوق ذلك مستغنى عنه، إذ النسب أمر وهي لا حقيقة له، ونفعه إنما في هذه الوُصلة والالتحام".⁸ وقد وجد ابن خلدون لمفهومه هذا سنداً في قوله صلى الله عليه وسلم: "تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم".⁹ وهو كما تلاحظ توظيف إيجابي لمفهوم ذو حدين ورأى أن أفضل ما يرجى من النسب الوُصلة والالتحام، وهذا في تقديرنا نذير وحدة وتلاحم بين الأفراد. فبالتواصل وحده يكون التواد والتراحم وبه يحصل الاتفاق على ما هو جامع ويكون التناصر، فإذا ما انعدم انعدم معه التناصر؛ ومن هنا كان أشد ما يكون التناصر والولاء إنما يكون على مستوى القبيلة وخاصة عند حدوث المخاطر.

لكن هل التناصر والولاء لا يكونا إلا على هذا المستوى ؟

ب/ من التناصر والولاء بين أفراد القبيلة إلى التناصر والولاء بين القبائل المؤسسة للدولة.

القبيلة الخلدونية في ظل المتغيرات المعاصرة.

لقد عرفنا كيف أن التناصر والولاء أول ما يكون هو بين أفراد القبيلة الواحدة بحكم النسب المحدث للوصلة والالتحام إحدائا طبيعيا. لكن هذه القبيلة بحكم تواجدها إلى جانب عدة قبائل أخرى تتصف بنفس الأوصاف وتتميز بنفس الخصائص، فهي تجد نفسها مرغمة على التصادم معها إن عاجلا أم آجلا.. ورغبة منها في البقاء فهي تنشئ القوة؛ وتحصيل القوة لا يأتي إلا من طريقين: إما بتقوية ذاتها وإما بالتحالف مع القبائل المجاورة لها ردا لعدوان قبيلة أو قبائل هي أقوى منها، ولا يمكن ردها إلا من باب التحالف. وهنا ينتقل التناصر والتحالف من قاعدة النسب المخصوص إلى قاعدة النسب العام أو المصلحة المشتركة والتي بها تتحقق الغلبة دوماً ويضمن البقاء، إلا أنه لا يتحقق الولاء إلا لأقوى القبائل التي يزيدونها بتحالفهم وولائهم لها قوة إلى قوتها ومن هنا كان قول ابن خلدون: "والنصرة تقع من أهل نسيهم المخصوص ومن أهل النسب العام، إلا أنها في النسب الخاص أشد لقرب اللحمة. والرياسة فيهم إنما تكون في نصاب واحد منهم ولا تكون في الكل. ولما كانت الرياسة إنما تكون بالغلب وجب أن تكون عصبية ذلك النصاب أقوى من سائر العصابات ليقع الغلب بها وتتم الرياسة لأهلها (...). ولا تنتقل إلا إلى الأقوى من فروعها".¹⁰ وبهذا تكون المصلحة المشتركة أي الدفاع المشترك إلى جانب النسب العام منه والخاص عامل تناصر وتلاحم ووحدة، ويكون الإذعان والإتباع لعصبية الرئيس لأن غاية العصبية الغالبة، في نظر ابن خلدون، الملك. ثم إن البشر من طبعهم يحتاجون في كل اجتماع إلى وازع وحاكم يزع بعضهم عن بعض؛ فإذا استقام هذا كله صارت العصبية كأنها عصبية واحدة كبرى،¹¹ وبذلك تتأسس الدولة ويكون الوطن وتكون الأمة، ويكون الاستقرار المفضي إلى التمدن والتحضر، وهي مرحلة ينتهي الأمر فيها إلى الاستغناء عن العصبية.¹²

III / من القبيلة إلى "المجتمع المتمدن" أو "مجتمع الأمصار" وليس إلى "المجتمع المدني".

إن أول ما يعترضنا من سؤال هو: هل التطور التاريخي وما يحمله من تغيرات هائلة في جميع الميادين هو عامل كفيل بأن يجعل من القبيلة، التي اعتبرها ابن خلدون العامل الرئيس في تحريك التاريخ، مجرد عارض كان بالأمس ولم يعد له مكان اليوم في

د.مناد طالب

ظل التغيرات التي حصلت وتحصل على مدار الساعة؟ وبعبارة أخرى: هل يعقل أن يكون المسبب سببا في تجاوز سببه؟ أو هل يعقل أن يستغني المسبب عن سببه؟ أي هل يمكن للتاريخ أن يتخلص من محركه الذي هو القبيلة خاصة في ظل ما بات يعرف بما يسمى بـ"المجتمع المدني في الغرب"؟

ابتداء، نود أن نقف عند مفهوم " المجتمع المدني " أولا. فإذا كان "المجتمع القبلي" المفضي إلى "المجتمع المتمدن" معروفا كل المعرفة عند المجتمعات العربية، وهو نتاج تطور طبيعي فيهم، عرفه العرب منذ أن تجمعوا وشكلوا مجتمعا سياسيا، ولذلك لما قال ابن خلدون إن القبيلة هي المحرك للتاريخ فهو لم يفعل أكثر من أنه سجل ما لاحظ أو استقرأ. فالمجتمع القبلي عند العرب لم يكن وليد الصدفة بل له مرجعيته التاريخية التي تعود إلى منشأ القبيلة ذاتها. وقد لعبت هذه المرجعية التاريخية دورها عبر كل محطات التاريخ العربي سواء أكان ذلك قبل الإسلام أو بعده، لكن وفق مظاهر أخلاقية وسياسية عرفت هي الأخرى تطورات نوعية نتيجة لظهور عوامل فعالة ومؤثرة منها عامل الإسلام. فهل توقفت اليوم هذه المرجعية التاريخية عن وظيفتها في المجتمع العربي أمام ما بات يعرف اليوم . كما قلنا . بمفهوم "المجتمع المدني" في الغرب والذي أخذ شيئا فشيئا يغزو بعضا من الفكر النخبوي في الفكر العربي اليوم.

أ/ المجتمع المدني:

ظهر مفهوم "المجتمع المدني" أول ما ظهر في الفكر الغربي في القرن السابع عشر الميلادي عندما أخذ بعض الفلاسفة يبحثون عن بديل للحكم في الغرب والذي كان يسوده الحكم الملكي والحكم الكنسي، وعلى رأس هؤلاء فلاسفة العقد الاجتماعي ممثلين أولا في الفيلسوف جون لوك (1632 . 1703) والفيلسوف هوبز T. Hobbes) 1588 . 1679) ومن بعدهم الفيلسوف جون جاك روسو J. J. Rousseau (1712 . 1778) في القرن الثامن عشر الميلادي: " ففي الملكية رعية من الرعايا، وفي الكنيسة مؤمن في مجتمع المؤمنين. وفي كلتا الحالتين كان الوجود الإنساني (في الغرب) يستمد مقوماته من خارجه، من السلطة السياسية أو السلطة الدينية. فجاء مفهوم المجتمع المدني كبديل عن الدولة والكنيسة. ويصبح فيه الإنسان عضوا بمحض إرادته وتنشأ السلطة فيه عن

القبيلة الخلدونية في ظل المتغيرات المعاصرة.

طريق العقد الاجتماعي [كما حددها فلاسفة العقد الاجتماعي]... لذلك ارتبط مفهوم المجتمع المدني بمفهوم المواطن والمواطنة، والمساواة في الحقوق والواجبات بين المواطنين.¹³ "فهو بهذا:" مجتمع يحكمه قانون تضعه الدولة في مواجهة نفسها."¹⁴ وهو مجتمع قد جاء نتيجة تطورات متعاقبة من داخل المجتمع الغربي وليس عن قطيعة كما يعتقد البعض لذلك حدث أن استوعبه المواطن الغربي وحقق على إثره نجاحات هامة حيث أصبح "المجتمع المدني" ينافس الدولة من حيث القوة والفعالية على جميع الأصعدة بل وحتى في مراقبة أجهزة الدولة ذاتها. فهو "حاضر" ناجح لأنه حاضرهم الذي قام على "مرجعية" هي مرجعيتهم و"اشتق" من ماض هو ماضيهم وليس غير.

ب/المجتمع المتمدن:

لكن ماذا عن المجتمع العربي عموما؟ هل يمكن له أن يتخلى هو عن مرجعيته التاريخية ليتبنى مرجعية غيره التاريخية وينشئ مجتمعا مماثلا للمجتمع الغربي؟ وماذا لو استعار المجتمع الغربي مرجعية المجتمع العربي فهل كان سينتهي إلى ما انتهى إليه؟ الجواب بكل بساطة: من استعار مشية غيره افتقد مشيته دون أن يحصل مشية الغير. ومنه فإذا كنا نبحث عن مجتمع أصيل معاصر يستند إلى مرجعيته التاريخية الأصيلة ويكون نموه نمو طبيعيا تستوعبه الأجيال ويحقق الأهداف المرجوة منه، فما علينا إلا أن نعود إلى المرجعية التاريخية للمجتمع العربي وإلى امتداداتها الطبيعية لتنظيف إلى لبناتها الماضية لبنة تزيد الصرح علوا وثباتا بدلا من أن نستعير ماضيا ليس هو ماضينا ونسعى عبثا لأن نبني حاضرا على مرجعية غريبة ونكون بذلك مثل من يريد أن يجني التمر من كروم العنب.

إن المتتبع للنصوص الخلدونية يجدها بحق "نصوص حقيقة" لا "حقيقة نصوص" ذلك أن "حقيقة النصوص" تنتهي بانتهاء نصوصها. أما "نصوص الحقيقة" فهي باقية كلما عدت إليها زودتك بحقائق تستثمرها متى شئت وبالكيفية التي تريد.

إن من أهم ما سجّله ابن خلدون وهو يعايش التاريخ ويستقرئه أن المجتمع العربي في نموه قد مر بمراحل طبيعية أشبه بنمو الإنسان نفسه: فمن القبيلة المتناصر

د.مناد طالب

أفرادها فيما بينهم، إلى الولاء بين القبائل، إلى بناء الدولة وبناء الأمة. ومن البادية حيث الحياة تميزها الخشونة والاقتصار على الضروري من العيش، والتنقل بين المراعي، وحيث القبيلة تعتمد على أفرادها في الدفاع عن نفسها، إلى المدينة أو المصر حيث الاستقرار المولد للصنائع المختلفة المفضية إلى أنواع من الترف واللين في العيش، وحيث الأفراد يولكون أمر الدفاع عنهم إلى الدولة... إنه بكل بساطة " المجتمع المتمدن "، إذ الفرد فيه يتنقل من المجتمع القبلي الريفي إلى المجتمع المتمدن حيث مؤثرات القبيلة تتراجع إلى حد بعيد ولكنها لا تتفسخ خاصة في الأرياف إذ تبقى متأهبة لكل فرصة سانحة تمنحها الدول القائمة التي ينتابها الضعف نتيجة توغلها المفرط في الترف من جهة واستغنائها عن القبيلة، التي كانت سببا في تمكينها، من جهة أخرى. فإذا ما بلغت الدولة حياة متقدمة من عمرها التكويني وضعف دفاعها، استعادت منها قبيلة أخرى زمام الحكم لتدخل في دورة تكوينية أخرى شبيهة بالتي سبقتها.

ومن المقارنة بين المجتمعين: "المجتمع المدني" في الغرب كما نظر له فلاسفة الغرب و"المجتمع المتمدن" عند العرب كما لاحظوه واستقرأه ابن خلدون نجد أن "المجتمع المدني" جاء نتيجة تطور تاريخي غربي محتوم، وكان آخر مراحلها: من الدولة المستبدة ودولة الكنيسة إلى المجتمع المدني، وهو تطور يبدو أنه قد جاء موافقا لقاعدة توالد الأشياء من أضدادها، مثله: "الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا، فإذا أنتم منه تُوقِدُون"¹⁵. (وأسباب هذا التطور الطبيعي والمحتوم معروفة لدى أهل الاختصاص وليس مجال عرضها هنا). أما "المجتمع المتمدن" فهو كذلك نمو طبيعي في المجتمعات العربية ينطلق من البادية حيث الخشونة والتنقل والاعتماد على الذات ليقف على مشارف الأمصار حيث الاستقرار والأمان المفضيان إلى ذوبان أو صهر القبائل وانتظامها تحت راية دولة موحدة ومنتجة لعوامل التقدم والرقى في شتى المجالات. فهو إذن خطوة نحو التحضر الذي يدوم بدوام شروطه ويزول بزوال شروطه كظهور الترف والتلهي بدل الاقتصاد في العيش والجِد في العمل. وهو بذلك يصير مجتمعا ينسجم مع كل عامل من العوامل التي تهدف إلى تحقيق مصالح العباد في ظل التوازن ما بين الحقوق والواجبات وفي ظل العدل والمساواة التي هي ركائز وبعث واستقرار كل دولة وقيام كل حضارة. ومن

القبيلة الخلدونية في ظل المتغيرات المعاصرة.

ثمة فلا جناح أن يتحوّل تنظيم القبيلة إلى أي تنظيم اجتماعي متمدن كتنظيمات الجماعات المحلية بجميع مشاربها وتنوعاتها أو إلى تنظيم سياسي كالأحزاب؛ يخضع جميعها للقانون ويعمل وفقه، غايتهم في ذلك تحقيق الحرية والعدل والمساواة بين أفراد الوطن الواحد أو الأمة الواحدة، لتكون بذلك مصدر وحدة وقوة وليس مصدر شقاق وتفتت للدولة أو الأمة. ولا يضر إن كانت جماعة الحي مثلا تنتمي إلى جهة أو قبيلة حفاظا على نسبها، ما دامت هذه الجهة أو الجماعة غايتها خدمة المواطن والوطن والأمة وليس غير ذلك، وهو أمر واقعي نعيشه في المدن بمحض النزوح الجماعي التكتلي الغريزي إلى جهات معية، فضلا عما يعاش في الأرياف، وهو أي النسب والانتماء إليه فطري في الإنسان، ويعتزّ به العربي ويقرّه الدين الإسلامي ويحرص عليه، ولا يستبدله عند الضرورة إلا بالأخوة في الدين حيث يقول المولى عز وجل: "أدعُوهم لأبائهم هو أفسطُ عِنْدَ اللَّهِ، فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ"¹⁶.

ومن هنا نقول أن "المجتمع المدني" في الغرب هو سلطة قائمة بذاتها وموازية للدولة بالرغم من أنها هي التي شرّعت له وكثيرا ما يدخل في صراع مع مؤسسات الدولة ذاتها، وهو مؤشر قد يشعّرنا بأن المسار التاريخي في الغرب هو سائر نحو استبدال كلي لسلطة الدولة بسلطة "المجتمع المدني" الذي يكون قد بلغ ربما مبلغا من الوعي يؤهله لأن يقوم بالدورين معا!

أما "المجتمع المتمدن"، كما سجل ذلك ابن خلدون، فهو مجتمع يتحقق في ظل الدولة ويصير منها وليس موازيا لها. فهو إحدى مؤسساتها الهامة، فهي تعمل به وله، ومن ثمة يصير كل واحد منهما يمثل الآخر ويصهر على مصالحه التي هي في نهاية المطاف مصالح مشتركة بينهما: ففوة الدولة من قوّته وضعفها من ضعفه.

وإلى جانب هذا وذاك، وعلى النقيض تماما لما حدث في المجتمع الغربي، فقد انتبه ابن خلدون إلى عامل فطري هام يتوافق وطبيعة العربي خاصة، فما هو هذا العامل وما هي وظائفه؟

د.مناد طالب

IV/ الدين كعامل قوة واستقرار (بين التغير والثبات):

القبيلة كوجود اجتماعي كان ولا يزال قائما وربما سيبقى أبداً أو على الأقل ما دام النسب والبدو قائمين، ذلك أن رابط القبيلة الذي هو النسب، المؤدي إلى الوصال والتلاحم والتواصل والنصرة دوماً، طبيعي، يزول بزوال القبيلة ويبقى ببقائها. والطبيعي ثابت مهما تغيرت ظواهره وتعددت والمصطنع متغير دوماً بتغير الظروف والأحوال. وهو عامل قد يقوى تارة وقد يخف أخرى أي قد ينشط في لحظة تاريخية معينة وقد يدخل في سبات في لحظات تاريخية أخرى وهذا متوقف على أمن القبيلة وعدمه...

ثم يأتي بعد هذا الرابط رابط ثان يدفع بالقبيلة إلى أن تخرج من نطاقها القبلي الضيق إلى ما هو أوسع، إلى نطاق الدولة أي الملك... وهذا لا يكون إلا بالقوة والغلبة ذاتها. وهو أشبه ما يسمى اليوم بالانقلابات السياسية والعسكرية.

فإذا كان عامل النسب، المحرك الأول في القبيلة والمنشئ الأساس لها، عاملاً ثابتاً ويهدف إلى النصرة والغلبة في شتى الأحوال فما الذي أحدثه الدين الإسلامي فيه؟ فهل أقرّه؟ أم تجاوزه؟ وهل يمكن تجاوز ما هو طبيعي؟ أي هل الدين مناف لما هو طبيعي ومعارض له؟

لا شك أن الدين فطري ولا يتعارض والفطرة الإنسانية السليمة، والتعارض إنما يكون فيما انحرف عن الفطرة. ونشاط التعارض أي التفاعل لا يكون إلا بمعنى التقويم والتسديد. لقد عرف المجتمع العربي قديماً (أي قبل الإسلام) النظام القبلي القائم على العصبية القبلية التي تعني التنافس بين أفرادها ظالمين كانوا أو مظلومين. ثم إن من خلق العرب التوحش الذي جعلهم من "أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض للغلبة والأنفة، وبعد الهمة والمنافسة في الرياسة، فقلماً تجتمع أهواؤهم"¹⁷ لكنهم مع ذلك يتميزون بخلق قلّ ما يتميز به غيرهم فهم "أسرع الناس قبولاً للحق والهدى لسلامة طباعهم من عوج الملكات وبراءتها من ذميم الأخلاق إلا ما كان من خلق التوحش"¹⁸ ولهذا كله ما كان ليجمع شملهم مثل الدين: "فإذا كان الدين بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم، وذهب خلق الكبر والمنافسة عنهم، فسهل انقيادهم واجتماعهم".¹⁹ ومن هنا من دون شك تبين لك كيف يغيّر عامل الدين خلق العربي من

القبيلة الخلدونية في ظل المتغيرات المعاصرة.

الخشونة إلى اللين والانقياد بما يكسبهم من وازع كان لهم من أنفسهم أي وازع ذاتي يراقبهم أينما كانوا وحلوا وسبحان القائل: "إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ"²⁰ ولنا في التاريخ عبر ومواعظ ومنها كثير.

وهكذا "فالمجتمع المتمدن" عندنا لم يكن ليتجاوز الدين كما هو الحال في "المجتمع المدني" في الغرب الذي قام على أنقاض نقيضه المجتمع الكنسي بل الدين فيه عامل ترويض واستقرار وتمدن يزيده قوّة إلى قوّته ويدعم فيه العدل والمساواة والآيات والأحاديث الصحيحة في هذا المجال أكثر من آية وأكثر من حديث. ويكفي في هذا قوله تعالى: "21 وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ". وقوله صلى الله عليه وسلم عن عائشة أم المؤمنين: "أن قريشا أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا: من يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة حب رسول الله صلى الله عليه وسلم. فكلّمه أسامة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتشفع في حد من حدود الله؟ ثم قام فاختطب فقال: أيها الناس إنّما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وأيم والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها".²²

فإذا تقرر هذا ظهر أن الدين في المجتمع العربي عامل يضمن تلاحم القبائل ويُنير نسبها إذ يثبته ويعطيه بعدا تنظيميا وأخلاقيا. ويقوم عصبيتها بتقويمه للنصرة أو النصرة فيما بينها وذلك بأن أعطى لقاعدة "أنصر أخاك ظالما أو مظلوما" العربية بعدا لم يكن مألوفاً عند العرب وذلك بأن ينصر المظلوم بالوقوف إلى جانبه وينصر الظالم بأن يقف في وجه ظلمه لغيره. ويشرّع للمؤاخاة في الدين والإنسانية. ويعمل على استقرار الدولة ودوامها ويزيدها قوة إلى قوتها الطبيعية ما دام قائما ومنظما فيها لأنه يزيد إلى وازع الدولة وازعا ذاتيا داخليا يجعل الفرد يقوم بواجباته ويقف عند حقوقه لا يتعدها إلى حقوق غيره.

خاتمة:

بقي أن نقول في الأخير أن التطور الحضاري السليم والمثمر، كما أكد ويؤكد دوما التاريخ البشري، هو ما كان تطورا عضويا ولا جرم إن احتلّ بما قد يوفد إليه من حضارات أخرى مما يجعل منه أكثر خبرة وقوة وسدادا، ذلك أن التطور العضوي هو وحده الذي يلقي قبولا وتفاعلا إيجابيا مع أفراد المجتمع لما هناك من ارتباط نفسي سوسولوجي ثقافي متميز بينهما وهو وحده القادر على إحداث الطفرات الحضارية في المجتمعات البشرية.

القبيلة الخلدونية في ظل المتغيرات المعاصرة.

المصادر والمراجع:

- 1 ابن خلدون، المقدمة. دار الكتاب اللبناني، ط2، بيروت، 1979، ص53.
- 2 المصدر نفسه، ص214، 67.
- 3 المصدر نفسه، ص 213، 212.
- 4 ابن منظور(جمال الدين بن أبي القاسم)، لسان العرب، ج4، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ، ص2964./ التهانوي(محمد علي)، كشاف اصطلاحات الفنون العلوم، ج2، تقديم د. رفيق العجم، تحقيق د. دحروج، ترجمة د. جورج زيناتي، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 1996. ص1183./ مجد الدين (محمد بن يعقوب)، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، ط2، بيروت، 1407هـ/ 1987، ص 184.
- 5 أنظر ابن منظور، لسان العرب، ج4، ص 2966.
- 6 ابن خلدون، المقدمة، ص225، 235.
- 7 الجابري(محمد عابد)، فكر ابن خلدون، العصبية والدولة، مركز دراسات الوحدة العربية، ط6، بدون تاريخ، ص168.
- 8 ابن خلدون، المقدمة، ص 226.
- 9 حديث ذكره ابن خلدون في مقدمته ص 226.
- 10 ابن خلدون، المقدمة، ص 230، 231.
- 11 انظر المصدر نفسه، ص 244، 245.
- 12 أنظر المصدر نفسه، ص 272 فما بعدها.
- 13 د. حسن حنفي، المجتمع المدني مفهوم يتوسط بين الأسرة والدولة، عن جريدة " الزمان "، العدد 1305، بتاريخ 2002.
- 14 المرجع نفسه، العدد نفسه.
- 15 القرآن الكريم، سورة يسن الآية 80.
- 16 القرآن الكريم، سورة الأحزاب، الآية 5.
- 17 ابن خلدون، المقدمة، ص266.
- 18 المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
- 19 المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
- 20 القرآن الكريم، سورة الرعد، الآية 11 .
- 21 القرآن الكريم، سورة المائدة، الآية 8.
- 22 حديث متفق عليه ورواه أصحاب السنن.